حكايات من القرآن

١٧

أصحاب الفيل

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

سَمِعَ المُصَلُّونَ من خَطِيبِ الجُمُعةِ حَدِيثاً شَيِّقاً عن سِيرةِ سَيّدِ الأنامِ عليه الصَّلاةُ والسَّلاَمُ، وخَتَم الخُطْبةَ بقوله: أيُّها المُؤْمنُونَ، عليكُم أن تُرَبُّوا أولادَكُم وبَناتِكُم على مَحَبَّةِ رَسُولِنا مُحَمَّد ﷺ وأن تُرَكِّزُوا على تَعْلِيمِهِم سِيْرَتَهُ الطَّاهرةَ.. وذلك بهدفِ جَعْلِه الأُسوةَ والقُدْوةَ لِلأجيالِ...

وبعدَ الصَّلاةِ سار (طارقٌ وخالدٌ) مع جَدِّهِما إلى البيتِ..

وفي سَهْرةِ يومِ الجُمُعةِ، قال الجَدُّ لِحَفِيدِه (خالدٍ): أريدُ أن أَحْكِيَ لكم أوَّلَ حادثةٍ حدثتْ في السَّنةِ التي وُلِدَ فيها رَسُولُ اللهِ ﷺ...

نادى (خالدٌ) أُمَّه وأُخْتَه وأخاه.. واجْتَمَعُوا حولَ جَدِّهم وأبيهم..، بينما راحَ الشَّيخُ الجَدُّ يَحْكِي لهم حِكايتَهُ الجَمِيلَة:

أَبْرَهَة مَلِكُ الحَبَشَةِ

وفي أَواخِرِ العَهْدِ الجاهِليِّ.. كان رَجُلٌ قَوِيٌّ يَحْكُمُ الحَبَشَةَ وتَوابِعَها يُدْعى (أَبْرهة) وفي سَنَةٍ من السَّنَواتِ فَتَحَ بلادَ اليمنِ ، وَأَخْضَعَها لِحُكْمِهِ..

وذاتَ يومٍ أَشارَ عليه أَحَدُ كِبارِ مُسْتَشارِيه بأنَّ العربَ جَمِيعاً يَحُجُّون إلى مَكَّةَ ، وبالتَّالي يكونُ النَّفْعُ والأَرْزَاقُ والخَيْراتُ لأهلِ تِلْكُم البِلادِ...

فقالَ (أَبْرَهَةُ): ولماذا يَحُجُّونَ إلى مَكَّةَ بِالذَّاتِ؟

فقالَ المُسْتَشارُ: إنَّ فيها بيتَ اللهِ الحَرامِ.. والذي بَنَاهُ خَلِيلُ الرَّحْمنِ إبْرَاهِيمُ!

وجَمَعَ (أَبْرهةُ) أهلَ الحِكْمةِ والرَّأْي ، واسْتَشَارَهُم في تِلْكم المَسْألةِ ، فَأَشارُوا عليه بأن يَبْنِيَ كَنِيسةً من طِرازٍ رَفِيعٍ.. ثم يأمرَ النَّاسَ أن يَحُجُّوا إليها بَدَلَ الحَجِّ إلى مَكَّةَ!!

كَنِيسةُ القُلَّيسِ!!

وبـالفِعْـلِ ، أَمَـرَ أن تُبْنَـى أَفْخَـمُ كَنِيسـةٍ فـي العالم.. وجِيءَ بالعُمَّالِ والمُهَنْدِسِينَ والنَّحَّاتِينَ والرَّسَّامِين.. فَشَرَعُوا ببناءِ الكَنِيسةِ..

ولمَّا تمَّ البناءُ على أَكْمَلِ وَجْهٍ.. أطلقَ (أبرهةُ) عليه كَنِيسة القُلَّيْسِ..

ثُمَّ أَصْدَرَ أوامِرَه إلى كافَّةِ النَّاسِ في مَمْلَكَتِه أن يَتَوجَّهُوا إلى تَقْدِيسِ تلكُم الكَنِيسةِ..

ثُمَّ طَلَبَ (أبرهةُ) من القبائلِ العربيةِ أن يَتْرُكُوا الذَّهابَ إلى مَكَّةَ.. ويَتَوَجَّهُوا إلى (القُلَّيس)...

لكنَّ العَرَبَ لم تُعْجِبْهُم تلك الفِكْرةُ فهم قومٌ وَرِثُوا مَسْألةَ تَعْظِيمِ البيتِ الحَرامِ عَنْ آبائِهم وَأَجْدادِهم.. ومنذُ أن بَنَى إبْراهيمُ الخَلِيلُ البيتَ الحَرَامَ..

أَبْرَهُة مَلِكُ الحَبَشَةِ

وفي أَواخِرِ العَهْدِ الجاهِليِّ.. كان رَجُلٌ قَوِيٌّ يَحْكُمُ الحَبَشَةَ وتَوابِعَها يُدْعى (أَبْرهة) وفي سَنَةٍ من السَّنَواتِ فَتَحَ بلادَ اليمنِ ، وَأَخْضَعَها لِحُكْمِهِ..

وذاتَ يومٍ أَشارَ عليه أَحَدُ كِبارِ مُسْتَشارِيه بأنَّ العربَ جَمِيعاً يَحُجُّون إلى مَكَّةَ ، وبالتَّالي يكونُ النَّفْعُ والأَرْزَاقُ والخَيْراتُ لأهلِ تِلْكُم البِلادِ...

فقالَ (أَبْرَهَةُ): ولماذا يَحُجُّونَ إلى مَكَّةَ بِالذَّاتِ؟

فقالَ المُسْتَشارُ: إنَّ فيها بيتَ اللهِ الحَرامِ.. والذي بَنَاهُ خَلِيلُ الرَّحْمنِ إبْرَاهِيمُ!

وجَمَعَ (أَبْرهةُ) أهلَ الحِكْمةِ والرَّأْي ، واسْتَشَارَهُم في تِلْكم المَسْألةِ ، فَأَشارُوا عليه بأن يَبْنِيَ كَنِيسةً من طِرازٍ رَفِيعٍ.. ثم يأمرَ النَّاسَ أن يَحُجُّوا إليها بَدَلَ الحَجِّ إلى مَكَّةَ!!

فَأَمَرَ بِتَجْهِيْزِ جَيْشٍ عَظِيمٍ.. بما في ذلك الوَسائِل والمُعِدَّات.. وأن تكونَ وسائلُ الرُّكُوبِ هي الفِيَلةَ....

وبَعْدَ عِدَّةِ أيَّامٍ سار (أَبْرهةُ) على رَأْسِ جَيْشٍ جَرَّارٍ.. وكان يركبُ على أكبرِ فِيلٍ.. وقد زَيَّنُوه له بأحسنِ زيْنةٍ!!

وَوَصَلَ خَبَرُ جيشِ (أَبْرهةَ) إلى كُلِّ قَبائِل العَرَبِ ، ولكنْ أنَّى للقَبائلِ المُتَفَرِّقةِ الوُقُوف أمامَ الجيشِ العظيمِ بآلاته ، وفيَلته ، وجُنُوده ، وَقائِده (أَبْرَهة)؟!

وقَطَعَ أفرادُ الجَيْشِ المَسافاتِ الطويلَة ، حتَّى إذا ما وَصَلُوا إلى مَشَارِفِ مَكَّة جَلَسُوا لِيَرْتَاحُوا قليلاً..

واجْتَمَعَ كِبَارُ أهلِ مَكَّة ، وتَنَاقَشُوا في كَيْفِيَّةِ الرَّدِّ على جَيْشِ (أَبْرَهةَ) ، لكنَّ (عبدَ المُطَّلِب بن هاشِمٍ)...

قال (طارقٌ) بصوتٍ مُرْتَفِعٍ: إنَّه جَدُّ رَسُولِ الله ﷺ. تَبَسَّمَ الجَدُّ وقال: أَحْسَنْتَ يا طارقُ.. فَعَبْدُ المُطَّلبِ كان زَعِيمَ مَكَّةَ آنئذٍ.. فاقْتَرَحَ اقْتِراحاً واقِعيّاً.. حيثُ قال: يا أهلَ مَكّةَ! إنَّنا لا نَسْتَطِيعُ مُجابَهَةَ (أَبْرهةَ) وجَيْشِه فأنا أرى أن نَتْرُكَ لهم مَكَّةَ ، ونَخْرُجَ إلى رُؤوسِ الجِبالِ.. ثم نَنْظُرَ ماذا يَفْعَلُونَ؟!

وفي تِلْكُم اللَّيلةِ أَخَذَ أَفْرادُ الجَيْشِ قَطِيعاً كَبِيراً من الإبِلِ.. وساقُوا الرَّاعي إلى مَلِكِهم.. فلما سَأله.. قال: هَذِه الإبلُ لِزَعيمِ مَكَّةَ (عَبْدِ المُطَّلِب)..

فأرسلَ (أبرهةُ) رَسُولاً إلى (عَبْدِ المُطَّلب) يُبَلِّغُه: أنَّ المَلِكَ (أبرهةَ) ما جاء لِقِتالِهم ولا لإيذَاءِ بلَدِهم.. ، إنما جاءَ لِهَدْمِ البيتِ الحَرامِ فَقَطْ!!

وفي الصَّباح.. جاءَ (عَبْدُ المُطَّلِبِ) إلى مكانِ تَواجُدِ (أبرهة).

فلمَّا رآه (أبرهةُ) وكان شَخْصاً طَوِيلاً ذا هَيْبةٍ

ووَقَارٍ.. فَوَقَعَ في نَفْسِ (أبرهةَ) تَقْديرُ زَعِيم مَكَّة ، وتَعْظِيْمُه..

فطلبَ من تَرْجُمانِه أن يَسْأَله: يا زَعِيمَ مَكَّة! ما هي طَلَبَاتُكَ؟

وإنَّ للبيتِ رَبّاً يَحْمِيْهِ!!

فقالَ (عَبدُ المُطَّلبِ) بِكُلِّ هُدوءٍ وثِقَةٍ بالنَّفْسِ: لا أريدُ إلا إبلي التي أَخَذْتُمُوها!!

ونَهَضَ (أبرهةُ) عن عَرْشِهِ ، وقال لِتَرْجُمانِه: قُلْ له ، لقد كنتَ أَعْجَبْتَني حين رَأَيْتُكَ.. ولكن عندما طلبتَ إبِلكَ وتَرَكْتَ البيتَ الحَرامَ.. سَقَطْتَ من عَيْنِي!!

فقالَ (عبدُ المُطَّلبِ): أنا ربُّ الإبِلِ... ولكنَّ للبيتِ رَبّاً يَحْمِيهِ..

وأَمَرَ (أبرهةُ) أن تُرَدَّ الإبِلُ إلى (عبدِ المُطَّلبِ)..

فَخَرَجَ عبدُ المُطَّلِبِ ، وسار إلى قُرْبِ البَيْتِ الحَرامِ ، ونادى النَّاسَ أن يَتْرُكُوا مَكَّةَ ، ويَصْعَدُوا إلى رُؤُوس الجِبالِ.

ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْ بابِ الكَعْبةِ ، وراحَ يَدْعُو اللهَ ويَقُولُ:

هذا (أبرهةُ) جاءَ مَعَ جَيْشِه لِهَدْم بَيْتِكَ الحَرَامِ.. ونَحْنُ لا نَسْتَطِيعُ الدِّفَاع عنه.. ثم أَنْشَدَ شِعْراً:

يـا رَبِّ لا أَرْجُـو لهـم سِـواكـا
يـا رَبِّ فـامْنَـعْ مِنْهـمُ حِمـاكـا
إنَّ عَـدُوَّ البيـتِ مَـنْ عَـاداكـا
إنَّهـم لـن يَقْهَـرُوا قِـواكـا

حِمايةُ اللهِ سُبْحانه وتعالى

قال (طارقٌ): وماذا فَعَلَ (أبرهةُ) يا جَدِّي؟

تابَعَ الجَدُّ حِكايَتَهُ قائلاً:

وتَرَكَ (عبدُ المُطَّلبِ) بابَ الكَعْبةِ.. وتَبِعَ أهلَ مَكَّةَ بالصُّعُودِ إلى الجِبالِ المُحِيطَةِ بالبيتِ الحَرامِ.. وراحُوا يَنْتَظِرُونَ ماذا سَيَحْدُثُ!!

أمَّا (أَبْرَهةُ): فَقَدْ أعْطَى أَمْراً إلى أَفْرادِ جَيْشِه أن يَسْتَعِدُّوا لِدُخُولِ مَكَّةَ، وحَدَّدَ ساعةَ الصِّفْر، وأَمَرهم بأن يَضْرِبُوا البيتَ الحَرامَ ضَرْبةً واحِدةً، وأن لا يَتْرُكُوا منه أيَّ شيء..

وقُبَيْلَ الفَجْرِ بقليلٍ.. أَعْطَى (أبرهةُ) أَمْرَ الدُّخُولِ الفَوْرِيِّ، لكنْ حَدَثَ أمرٌ عَجِيْبٌ!!

لَقَدْ بَرَكَ - قَعَدَ - الفِيلُ الكَبيرُ... وبَرَكَ مَعَهُ غَالبيَّةُ الفِيلةِ.

وحَاوَلُوا مَنْعَ الفِيلةِ مَرَّةً ومَرَّاتٍ.. لكنْ دُونَ جَدْوىٰ.. ، فَوَجَّهُوهُم باتِّجاه اليمنِ فَأَسْرَعُوا الخُطا.. فَأَعادُوا تَوْجِيْهَهُم نحو الكَعْبةِ.. فَبركُوا من جَدِيدٍ!!

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾

فقالَ (أَبْرَهَةُ): وما هُو العَمَلُ الآنَ؟

وبَيْنَما هُم يَتَنَاقَشُونَ في أَمْرِ الفِيلَةِ.. إذ جاءتْ طُيورٌ من جِوارِ البحرِ الأَحْمرِ واتَّجَهَتْ إلى مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ ، فلمَّا رآها أهلُ مَكَّةَ وهم جالِسُونَ على أعالي الجِبال.. قالوا: ما هذه الطُّيورُ التي لم نَرَها في بِلادنا أبداً؟!

ولمَّا وَصَلتْ فَوْقَ الجيشِ ـ جَيْشِ أَبْرهةَ ـ أَسْقَطَتْ من مَناقِيرِها حجارةً صَغِيرةً ، أمثالَ الحِمّص والعَدَس.

وحَدَثَ أمرٌ مِنَ الخَوَارِقِ العَجِيبةِ...

قالتْ (أمُّ خالدٍ): إنَّها قُوَّةُ اللهِ وقُدْرَتُه يا شَيْخَنا ، أليس اللهُ قادراً على كُلِّ شيء.. أليسَ اللهُ هو الذي يَحْمِي بَيْتَهُ؟!

أَجَلْ! قالَها الجَدُّ ـ وَهو يَتَنَهَّدُ ـ إنَّها قوةُ الله..
لذلك كانتْ تلكَ الحِجارةُ العَجِيبةُ كالنَّارِ اللاهِبةِ..
ما أصابتْ أَحَداً: رَجُلاً كان أو فِيلاً.. إلا أَحْرَقَتْهُ...!!

وحاولَ بعضُهم أن يَفِرَّ أو يَخْتَبىء لكنْ أنّى له ذلك.. وقد جاء أمرُ اللهِ سُبْحانه؟!

وبَعْدَ قليلٍ أرسلَ (عَبْد المُطّلبِ) فارساً من أَهْلِ مَكَّة يَطَّلِعُ عن قرب ، فلما عاد... قال: لقد أبادهم اللهُ عن بَكْرةِ أبيهم.. وتَرَكُوا وراءهم كُلَّ شَيء...

ونزلَ أَهْلُ مَكَّةَ إلى البيتِ الحَرامِ.. فرَاحُوا يَطُوفُون به وهم يَحْمدُونَ الله ، ويَشْكُرُونَهُ على تِلْكُم النعْمَةِ العَظِيمةِ...

فقالَ أحدُ زُعَماءِ مَكَّة: لقدْ صَدَقْتَ يا عبدَ المُطَّلب: فإنَّ للبيتِ رباً يَحْمِيه..

وقال واحدٌ آخَرُ.. وقد وَقَفَ أمامَ مَقَامِ إبْراهيمَ الخَلِيل قُرْبَ الكَعْبَةِ المُشَرَّفةِ:

أنـتَ الجَلِيـلُ ربَّنـا لـم تَـدْنَـس
أنتَ حَبَسْتَ الفِيلَ بالمُغَمِّسِ[1]
مِـنْ بَعْـدَمـا هَـمَّ بِشَـرٍّ مُبلـس
حَبَسْتَه في هَيْئَةِ المُكْرِكسِ[2]
ومـــا لهـــم مـــن فَـــرَجٍ ومَنْفَـــس
فردَّدَ (عبدُ المُطَّلب) وهو في حَالِ سُرُورٍ وفَرْحةٍ:
أنـتَ مَنَعْـتَ الحُبـشَ والأَفْيـالا
وَقَـــدْ رَعَـــوا بِمَكَّـــةَ الأَجْبَـــالا
وَقَـــدْ خَشِينـــا مِنْهُـــم القِتـــالا
وكـــلَّ أَمْـــرٍ لهـــم مِعْضَـــالا
شُكْراً وحَمْداً لك ذا الجَلالا
وهَكَذَا يا أَحْبابي: انْقَلَبَ الحُزْنُ والخَوْفُ إلى

---

(١) المغمِّس: هي المنطقة التي كان فيها جيش (أبرهة) عندما جاءته الطيور ، وهو قرب مكة.
(٢) المكركس: المنكوس المطروح.

فَرَحٍ وأَمانٍ وسُرورٍ.. ، وكلُّ ذلك كان بِفَضْلِ حِفْظِ الله سُبْحانه وتعالى لبيته الشَّريفِ..

ورَتّلَ (أبو خالدٍ) مع الأولادِ سُورةَ الفِيلِ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

[الفيل: ١ ـ ٥].

ولكنْ يا جَدِّي ـ سألتْ (بُشْرى) ـ: حتَّى الآنَ لم أَفْهَمْ ما دَخْلُ قِصَّةِ أَصْحابِ الفِيلِ بِسِيْرَةِ رَسُولِ الله ﷺ؟!

تَبَسَّمَ الجَدُّ وقال: أَحْسَنْتِ يا بُشْرى.. ولا تُؤاخِذِيْنَني... فالكِبرُ أَصْبَحَ يُؤَثِّرُ في ذَاكِرَتي.. لذلك نسيتُ أن أَقُولَ لكم في بِدايةِ القِصَّةِ:

إنَّ حَادِثَةَ أصْحابِ الفِيلِ حَدَثَتْ في العامِ الذي وُلِد فيه رَسُولُ الله ﷺ ، لتكُونَ مُعْجِزةً أيَّدَ اللهُ بها رَسُولَه.. ومنذُ اليومِ الأوَّلِ مِنْ وِلادَتِهِ...

قال (أبو خالدٍ): وكأنَّ في القِصَّةِ دليلاً واضِحاً على أنَّ اللهَ سَيَحْفَظُ دِينَ إبْراهِيمَ.. والكعبةَ، والبيتَ الحَرَامَ.. بهذا المَوْلُودِ الجَدِيدِ.. وهُو سَيِّدُنا مُحَمَّدٍ ﷺ.

قالَ الجَدُّ: سَأحْكِي لكم بَعْضَ الحِكاياتِ التي تَتَعلَّقُ بِسيرةِ رَسُولِ الله، لكنْ كما اتَّفَقْنا في البِدايةِ.. على أن تَكُونَ من القُرْآنِ الكريمِ.. وإلى لِقاءٍ آخَرَ..

والحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ